حديث التقريب .. حافظ الشيرازي الخطاب الانساني

في التقويم الايراني 12 اكتوبر يوم حافظ الشيرازي، ومن اللازم أن نقف قليلا عند هذا الشاعر الكبير الذي تجاوز الاطار المذهبي والقومي فاصبح شاعر الإنسانية. ولذلك اهتم الباحثون العرب والغربيون بأدبه فعكفوا عليه ترجمة وشرحًا وتعليقًا.

بداية لابد أن نشير إلى أن حافظ الشيرازي (شمس الدين محمد) أعظم شعراء الغزل في إيران على الإطلاق، ومن كبار شعراء القرن الثامن الهجري، ولد سنة 606هـ في شيراز، وجمع في ديوانه فني سعدي ومولانا جلال الدين.

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ الغزل هو التغنّي بالجمال، وإظهار الشوق إليه، والشكوى من فراقه. والجميل المطلق هو (ا) سبحانه، والغَزَليّ الحقيقي هو العاشق. والعشق هو التخلّص من قيود الذاتية والأنانية، والسموّ في مدارج الكمال الإنساني من هنا فان لحافظ وأمثاله دورًا تاريخيًا كبيرًا في إيقاظ الشعور، وتحرير الأمة من النظرات الضيقة، ومن ثم فإن لهم دورًا في توحيد الأمة واستنهاضها.

سمي حافظًا لأنه حفظ القرآن واستوعبه وتمثله في وجوده وفاضت قريحته من منهله، فهو ابن الحضارة الإسلامية، وثمرة من ثمارها. وحافظ الشيرازي خير من يعبرون عن معنى «العشق» في الأدب الفارسي.

القسم الأعظم من ديوانه حديث عن «العشق» ضمن مقطوعات تسمى «الغزليات» وكل غزلية تتكون من عدد من الأبيات (في حدود 7 أبيات عادة) ذات قواف وأوزان متحدة، والبيت الأول مصرّع حتمًا، وكل بيت له معنى يكاد يكون مستقلاً عن غيره.

أول غزلياته يبدأها بشطر بيت عربي يدعو فيه الساقي أن يناوله كأسًا كي يخفّف عنه أثقال هموم العشق الذي بدا في أوله سهلاً، لكنّ ثقل أعبائه بدت على مرّ الأيام:

ألا يا أيها الساقي أدر كأسًا وناولها/ كه عشق آسان نمود اول ولى افتاد مشكلها

أي: «فالعشق بدا في أوله سهلاً ثم وقعت المشاكل»

وفي بيت آخر من هذه الغزلية يتحدث عن نفسه التي لا تدعه يستقرّ لأن شوط العمر قصير:

مرا در منزل جانان چه امن عيش چون هر دَم/ جَرَس فرياد مى دارد كه بربنديد محملها

أي : «أيّ أمن عيش لي في منزل الحبيب،إذ في كل لحظة/ يدق الجرس أن ارزموا محملكم».

وفي بيت آخر من هذه الغزلية يشير إلى مايحيط به من أهوال تعبّر عن الهموم الكبيرة التي يحملها، ويرى أن الذين يخلدون إلى الراحة ودِعَةِ العيش لا يفهمون ما يثقل صدور العاشقين:

شبِ تاريك وبيم موج و گردابى چنين هايل/ كجا دانند حال ما سبكباران ساحلها

أي: «ليل مظلم وموج مخيف، ولُجّة هائلة/ من أين لسكان السواحل أن يعرفوا حالنا».

ثم يدعونفسه لأن يسير على طريق العشق إذا أراد أن يكون حاضرًا، أي إذا أراد أن يكون ذا مكانة في ساحة الإنسانية المتكاملة:

حضورى گر همى خواهى از او غايب مشو حافظ/ متى ما تلق من تهوى دع الدنيا وأهملها

أي: «إذا أردت حضورًا مستمرًا فلا تَغِب عنه يا حافظ / متى ماتلق من تهوى دعِ الدنيا وأهملها».

ويلاحظ أن البيت الأول الذي يشير فيه إلى سهولة العشق في بداية مراحله، وظهور مشاكله وثقل أعبائه في مراحل تالية، له ما يشابهه في الغزل العربي، يقول الشاعر:

تولّع بالعشق حتى عشق/ فلما استقلّ به لم يُطق

رأى لُجّة ظنّها موجةً / فلمّا تمكّن منها غرق

* * *

نار العشق: النار والنور من رموز الطاقة المحركة والضياء في الأدب. وعن ارتباط النار بالعشق يقول حافظ:

در ازل پـرتو حسنت زتجلـّی دم زد/ عشـق پیـدا شد وآتش به همه ـعالم ـزد

أي: «نور جمالك تجلـّى منذ الأزل/ فظهر العشق وأضرم في العالم نارًا".

فالجمال هو الذي خلق العشق وأضرم النار في العالم. والبرق الذي سطع من منزل ليلى أضرم النار في بيدر مجنون:

برقی از منـزل لیلی بدرخشید سحـــر/ وه که با خَرمَن مجنون دل افگار چه کرد

أي: «لقد سطع من منزل ليلى في السحر برق/ آه، ماذا فَعَل ببيدر المجنون المسكين».

أما نار الوادي المقدس فلم تبعث البهجة في قلب حافظ فحسب، بل إن موسد(ع) جاء إلى ذلك المكان على أمل الحصول على قبس:

ز آتش وادی ایمن نه ـمنم خُرّم ـ وبس/ موسی آنجا به امید قبسی مـی ـآید

أي: «لستُ وحدي جذلانًا من الوادي الأيمن/ موسى (أيضًا) جاء على أمل قبس إلى ذلك الوادي».

* * *

العشق ولوم اللائمين : الحديث عن اللائمين يردده جميع العشّاق، ويكررون القول بأنهم لا يبالون بهؤلاء لأنهم لا يعرفون معنى العشق ولم يذوقوه. والحديث عن اللائمين نراه عند حافظ إذ يقول:

به رغم مُدّعیانی که منع عشق کننـد/ جمال چهره ـی تو حُجّت موجّه ـماست

أي: «رغم الأدعياء الذين يمنعون العشق/ جمالك حجتنا الوجيهة».

فالجمال حجة كافية للعشق رغم لوم اللائمين.

ويرى أن الزاهد المتمسك بالمظاهر لا يفهم حال العشاق فله الحق فيما يقول:

زاهد ظاهر پرست از حال ما آگاه نیست/ در حق ماهرچه گوید جای هیچ اکراه نیست

أي: «الزاهد المتظـاهر لا يعلم بحالنا/ فكلّ ما يقوله بحقّنا لا يسيء إلينـا».

وللعشاق ألف شغل في كل خصلة من شَعرِ الحبيب فأين العشاق من اللائمين الفارغين؟!:

هرسر موی مرا با تو هزاران کار است/ مـا کجاییم وملامتگر بیکار کجـــاست

أي: «لنـا ألف شغل في كلّ خصلة من شعرك / أيـن نحن مـن هذا اللائم العاطــل؟!»

* * *

الخروج من الذاتية: وللتفريق بين العاشق الحقيقي وبين طالب الشهوة يرى حافظ أن العاشق لابد أولاً أن يتحرر من الذاتية، وإذا كان حبيس ذاته فهو لا يفهم العشق وأسراره:

بـــا مدّعی مگویید اسرار عشق ومستی/ تا بـــی خبر بمیرد در درد وخود پرستی

أي: «لاتتحـــدثوا مع المدعي عن أسرار العشق / كي يموت جاهلاً في الألم وعبادة الـــذات».

ويفدي حافظ نفسه لمن بلغت همته أن يتحرر من كل مالَهُ طابع انشداد أرضي:

غـــلام همّت آنم که زیر چرخ کبود/ زهر چه رنگ تعلّق پذیرد آزاد است

أي: «أناغلام همّة ذاك الذي تحت السماء الزرقاء / قد تحرر من كلّ ماله لون التعلـق بالأرض».

وطريق منزل ليلى محفوف بالأخطار والشرط الأول للسير على هذا الطريق أن تكون مجنونًا، أي عاشقًا حقيقيًا متحررًا من ذاته:

در ره منزل ليلى كه خطرهاست در آن/ شرط اوّل قدم آن است كه مجنون باشى

أي: «في طريق منزل ليلى المحفوف بالاخطار/ الشرط الأول لوضع قدمك في الطريق أن تكون مجنونًا ».

وأي معبود تتجه إليه خارج ذاتك هو أفضل من عبادة ذاتك:

گر خود بُتى ببينى مشغول كار او شو/ هر قبله يى كه بينى بهتر ز خود پرستى

أي: «إذا رأيت صنمًا فاشتغل به/ كل قبلة تتجه إليها أفضل من عبادة الذات».

وإذا أردت أن تسأل عن أسرار آلام العشق فاسأل ذلك من الشمعة لا من تيار الهوى:

خواهى كه روشنت شود اسرار درد عشق/ از شمع پُرس قصه زباد هوا مپرس

أي: «إذا أردت أن تتضح لك أسرار العشق /فاسأل عن القصة من الشمعة لامن تيارالهوى».

* * *

العشق لا يفهمه إلا الخواص: والخواص ليسوا هم الذين كدسوا المعلومات، بل هم الذين طهّروا قلوبهم من كل ما سوى العشق، وهؤلاء هم الذين يعرفون أسرار العشق، والمدّعون لا يستطيعون أن يقفوا على أسراره، بل إذا أرادوا التفرّج على ساحة الأسرار تصدهم يد الغيب عن ذلك:

مدّعى خواست كه آيد به تماشاگه راز/ دست غيب آمد و برسينه نامحرم زد

أي: «أراد المدّعي أن يأتي ليتفرج على الأسرار/ فجاءت يدُ الغيب وضربت على صدرالأجنبي».

وما أجمل ما قاله الحلاج عن العشق، إذ قال لا تسألوا الشافعي (أي لا تسألوا العلماء والفقهاء) عن مثل هذه المسائل:

حلاج برسر دار اين نكته خوش سرآيد/ از شافعى نپرسيد امثال اين مسايل

أي: «الحلاج على المشنقة، قال بشكل رائع هذه النكتة/ لا تسألوا الشافعي عن أمثال هذه المسائل».

ومَحرَم القلب هو الذي يبقى في حرم الحبيب، ومن ليس كذلك (الاجنبي) يبقى في الإنكار:

هر كه شد مَحْرَم دل در حَرَم يار بماند/ و آن كه اين كار ندانست در انكار بماند

أي: «من أصبح مَحرَمًا للقلب بقي في حريم الحبيب/ ومَن لم يعرف كيف يكون محرمًا بقي في الترديد».

وحديث العشق حديث النفس والقلب لا حديث العقل والمدرسة ومباحث القيل والقال الكلامية:

مباحثى كه در آن حلقه جنون مى رفت/ وراى مدرسه وقال وقيل مسأله بود

أي: «المباحث التي كانت تدور في حلقة الجنون تلك /هي ما وراء المدرسة وما وراء القيل والقال».

* * *

العشق فطرة وحياة: الناس منجذبون فطريًا لعشق الجمال، سواء منهم من نهج طريق العقل أو نهج طريق

العرفان. وكلّ أماكن العبادة يعبّر فيها المؤمنون عن انشدادهم بالعشق:

همه كس طالب يارند چه هشيار وچه مست/ همه جا خانه عشق است چه مسجد چه كنشت

أي: «كل الناس يطلبون المعشوق، الصاحي منهم والثمل/ وكل مكان بيت للعشق مسجداً كان أم كنيساً».

والعشق موهبة وصلت الإنسان من ميراث الفطرة:

مى خور كه عاشقى نه به كسب است واختيار/ اين موهبت رسيد ز ميراث فطرتم

أي: «عبّ المدام، فالعشق ليس بالكسب والاختيار / هذه موهبة وصلتني من ميراث فطرتي».

والعاشق العارف لم يتعلم سوى عشق جمال الحبيب:

نيست بر لوح دلم جز الف قامت دوست/ چه كنم حرف دگر ياد نداد استادم

أي: «ليس على لوح قلبي سوى ألف قامة الحبيب / ماذا أفعل إذ لم يعلمني أستاذي غير ذلك».

والعشق هو الحياة وليس سواه إلا الموت، ويُفتي حافظ بأداء صلاة الميت على من خلا قلبه من العشق:

هرآن كسى كه درين حلقه نيست زنده به عشق/ بر او نمرده به فتواى من نماز كنيد

أي: «كل من لم يكن في هذه الحلقة حياً بالعشق/ بفتواي أقيموا عليه صلاة الميت وهو حيّ».

* * *

البلبل والوردة: كل الكون يتحرك بالعشق، والعلاقات بين الكائنات هي علاقة عاشق ومعشوق، وإلى هذه الحقيقة يرمز حافظ في حديثه عن علاقة البلبل بالزهرة. فالبلبل يُنشد متغزلاً حين يبهره جمال الزهرة:

بُلبل ازفيض گُل آموخت سُخن ورنه نبود/ اين همه قول وغزل تعبيه در منقارش

أي: «البلبل تعلم الكلام من فيض جمال الزهرة وإلا /ما كان كلّ هذا الكلام والغزل معبّأ في منقاره».

والبلبل في تغريدة يُنشد ترانيم روحيّة يدعو فيها إلى الإمعان في جمال الزهرة وماتشعّه من نور هو ذاته ما رآه موسد(ع) من نار في طور سيناء، لتقرأ في هذا الجمال درس التوحيد:

بلبل زشاخ سرو به گلبانك پهلوى/ مى خواند دوش درس مقامات معنوى

يعنى بيا كه آتش موسى نمود گل/ تا از درخت نكته توحيد بشنوى

أي: «البلبل من غصن شجرة السرو باللحن البهلوي/ كان ينشد أمس دروساً في المنازل المعنوية/ تعال فقد أبرز الورد نار موسى لتسمع من الشجرة ترانيم التوحيد».

فالجمال يبعث في النفس ذلك العشق الذي يكسر صنم الذات ويجعل الإنسان يطلب الكمال المطلق وهو الله تعالى.

هذه هي طبيعة الوردة أن تشع بحسنها، وهذه هي طبيعة البلبل أن يكون قرين العشق. لا في تلك تغيّر ولا في هذا تبدّل:

گل يار حُسن گشته وبلبل قرين عشق/ أين را تغيّرى نه وآن را تبدّلى

أي: «الورد أصبح قرين الحسن والبلبل قرين العشق/لا في هذا تغيّر ولا في ذلك تبدّل».

* * *

مما تقدم نفهم أن العشق في الأدب العرفاني الفارسي هو خروج الإنسان من ذاتياته وأنانياته، لينطلق في رحاب الجمال المطلق، والحكمة المطلقة، والعلم المطلق، والرحمة المطلقة... وهذا العشق يجعله يحسّ بطاقة عظيمة تملأ وجوده فتدفعه على طريق كلّ صفات الجلال والجمال في حركة لا متناهية.. أي تحرّكه نحو الله سبحانه.

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

الشؤون الدولية